المبحث الثاني
مناقشة منكري النبوات

النتيجة التي خرجنا بها من مبحثنا السابق هي:

أن الإنسان لا يستطيع أن يكتفي بعقله وضميره في كل شيء مما ينبغي له أن يعرفه مما يتعلق بالله وصفاته، وما لا بد منه من شرائع لتنظيم حياته الأولى، وصلاح أمر المجتمع فيها، وحياته الأخرى وما يكون فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم.

ومن هنا كانت حاجة العقل الإنساني إلى مُعين يستعين به في إدراك ما يعجز عن إدراكه من ذلك حاجة ماسة وضرورة ملحّة.

ومع ذلك فقد ذهب قوم من الناس إلى القول بعدم حاجة الإنسان إلى هَدي النبوة ووحي الرسالة.

زاعمين أن الإنسان يستطيع أن يقوم وحدَهُ، وأن يكتفي بعقله في تنظيم حياته وتلبية حاجاته.

والذاهبون إلى ذلك فريقان:

فريق ينكر النبوات والرسالات السماوية، لأنه ينكر الإله تعالى ولا يعترف بوجوده. ومن البديهي أن مَن ينكر المرسِل وينفي وجوده، لا بد وأن ينكر رسوله، ولا يعترف بهديه ورسالته، وقد عرف هؤلاء في التاريخ بالملحدين أو الماديين.

وقد وجد منهم جماعات في كل زمان ومكان. ومع ذلك لم يستطيعوا أن يؤثروا في الرأي العام الإنساني، ولا أن يحرفوه عن فطرته، فبقي الإنسان مؤمناً بالله، مستنيراً برسالاته في دروب الحياة المظلمة.

ومناقشة هذا الفريق لا تكون في إثبات النبوات ومدى حاجة العقل الإنساني إلى هديها، وإنما تكون في البرهنة على وجود المبدع الأول، والخالق الأعظم لهذا الكون

وما فيه. ومحل ذلك مبحث الإلهيات، وليس هنا.

الفريق الثاني: يعترف بوجود الله - ﷻ - ويؤمن به، ولكنه ينكر النبوات والرسالات السماوية، مكتفين بما تدركه عقولهم من خير أو شر، فضيلة أو رذيلة، زاعمين أن بعث الرسل منافٍ للحكمة، فلا يقع من الحكيم تبارك وتعالى.

وعلى رأس هذا الفريق كثير من براهمة الهند[1] والصابئة[2] وبعض الفلاسفة، وقد تأثر بفلسفتهم بعض الزنادقة من المسلمين[3].

استدل هؤلاء على وجهة نظرهم بجملة أدلة، نورد أهمها ونبيّن تهافتها، وبُعدها عن الحق والصواب فيما يلي:

١ - **قالوا**: إن ما يأتي به الرسول لا يخلو إما أن يكون مما يعرفه العقل، أو مما لا يعرفه.

فإن جاء بما يعرفه العقل كان لا فائدة منه، ولا حاجة لنا إليه، ويكون في العقل غنى وكفاية.

وإن جاء بما لا يعرفه العقل، كان حرياً به ألا يتلقى بالقبول، لأن المقبول هو الذي تدركه العقول.

وأجيب عنه: بأن هذا الدليل واضح البطلان، لأن كل مطلع على الرسالات

---

(١) البراهمة: نسبة إلى (برهم) وهو اسم الله في اللغة السنسكريتية. وهو عندهم الإله الموجود بذاته، لا تدركه الحواس، ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها لا حد له، وهو الأصل الأزلي الذي يستمد منه العالم وجوده.

والهندوسية: دين توحيد من جهة، ودين تعدد من جهة أخرى، تنطبع فيها عقائد بدائية كعبادة قوى الطبيعة، وعبادة الأجداد، وعبادة [illegible] بشكل خاص.

انظر أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي ص[illegible] والفصل في الملل والنحل لابن حزم [illegible] والعقل والنقل [illegible] والأديان دراسة تاريخية مقارنة للدكتور [illegible] عليان ص٨٧.

(٢) انظر [illegible] كتاب: الصابئون، حوانيت [illegible] ص[illegible].

(٣) [illegible] أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي المتوفى سنة [illegible] وقيل سنة [illegible]. وراوند قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان والراوندية حركة أملاها [illegible] الإسلام [illegible] إلى هدمه، واعتمدت أسساً فكرية مناقضة له. انظر الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد [illegible] موسى ص١٢٣ والغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية للدكتور عبدالله سلوم السامرائي ص٧. وابن الريوندي الملحد للدكتور عبدالأمير الأعسم.

السماوية يعلم أنها قد اشتملت على ما يعرفه العقل وعلى ما لا يعرفه.

فأما ما يعرفه العقل فكان لهذه الرسالات مهمة التأكيد عليه والإلزام به، وفي ذلك دعم لمكانة العقل، وتعبير عملي عن أهميته في بناء الحياة.

وأما ما لا يعرفه العقل ـ وهو الأكثر ـ فإن للرسالات السماوية دور إرشاد العقل إليه، وتنبيهه إلى ما فيه النافع الصالح، ووضع الحلول المناسبة لما يصادف الناس من مشاكل الحياة المتجددة، وشؤونها المعقدة.

وما قد يبدو مخالفاً لما يقتضيه العقل من التشريعات السماوية كبعض أعمال الحج[1] فهو ناشيء عن قصور العقل أحياناً عن إدراك المصالح والمفاسد الحقيقية وعدم إحاطته غالباً بالمصالح الأخروية[2].

٢ ـ قالوا: إن الرسول من جنس المرسل إليه، وتفضيل أحد المتماثلين المتساويين على مثله ونوعه حيف ومحاباة وخروج عن العدل والحكمة، وذلك غير جائز على الحكيم العادل ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأجيب عنه[3]:

١ ـ بأن الله جلّت حكمته إن يخص بفضله وكرمه مَن يشاء من خلقه كما أن له أن يسوي بين سائرهم.

وهذا لا ينافي كونه ـ تعالى ـ عادلاً حكيماً.

٢ ـ ويلزم من دليلكم... أن يكون الله غير عادل، لأنه خصّ بعض خلقه بالعلم والذكاء وكمال الجسم والحواس، وخلق في بعض آخر الجهل والغباء والنقص في الجسم والحواس.

---

(١) مثل تقبيل الحجر الأسود، والهرولة، ورمي الجمار، فإن العقل المجرد يعجز ولا يدلك عن إدراك الغاية منها، ويكون الإتيان بها من قبيل التعبد والتأسي بالرسول و﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذا ما حمل عمر بن الخطاب ﷺ على قوله، عندما همّ بتقبيل الحجر: (أعرف أنك حجر لا تنفع ولا تضر، والله لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك). ولا شك أن في التأسي بالرسول والالتزام برسالته مصالح أخروية ومنافع دنيوية ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

(٢) انظر: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للحِلّي ص٢٧٣.

(٣) انظر: التمهيد للباقلاني ص١٠٤ ـ ١٠٦.

وأنتم لا تقولون بذلك، بل تقولون أن ذلك لمصلحة الطرفين وسبيل لهم إلى نفع عظيم، والله تعالى أعلم به.

فلتكن خصوصية بعض الخلق بالرسالة أو غيرها مصلحة للطرفين ـ الرسول والمرسل إليه ـ ولطفاً لهم في النظر في حجج العقول التي أمرهم بالرجوع إليها والعمل بموجبها.

٣ ـ قالوا: إن الله ﷻ حكيم. ومَن يبعث رسولاً إلى مَن يعلم أنه يكفر به ولا يصدق رسوله، بل يعصيه ويؤذيه يكون عابثاً. فوجب نفي بعث الرسل عن الله ﷻ لنفي العبث عنه.

وأجيب عنه: بأنه يترتب على دليلكم جواز بعث الرسل إلى مَن يعلم قبوله منهم وانتفاعه به.

كما يترتب عليه أن لا يحتج الله ـ تعالى ـ بالعقول، وما وضعه فيها من الأدلة على مَن يعلم أنه يجحدها ولا يستدل بها.

فإن قلتم: لقد استدل بها كثير، واهتدى بهديها كثير.

قلنا: وقد صدّق بالرسل كثير، واهتدى بهديهم كثير.

فما المانع من أن يحتج الله ـ ﷻ ـ على عباده عن طريق واحد منهم يرسله إليهم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] وفنون المعرفة. كما احتج عليهم بالعقل، وجعله مصدراً للمعرفة[1].

٤ ـ قالوا: إن كان الله تعالى إنما بعث الرسل لهداية الناس إلى الإيمان به، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم، فقد كان أجدر به، وأتم لمراده، أن يضطر عقولهم إلى الإيمان به وإلى معرفة ما فيه خيرهم.

وأجيب عنه: بأنه يلزم من دليلكم القول بأنه كان أجدر به، وأولى في حكمته وأتم لمراده أن لا يدعو الناس للإيمان به والتعرف على شريعته عن طريق النظر العقلي والاستدلال المنطقي، سيما وأنه تعالى يعلم أن فيهم مَن لا يستدل وفيهم مَن لا يحسن الاستدلال.

فكان أولى به أن يضطر عقولهم إلى الإيمان به...، ولا يكلفهم مؤونة النظر والاستدلال، وأن يلطف بهم إلطافاً يختار جميعهم معها الإيمان كما فعل بالملائكة.

---

(١) التمهيد للباقلاني ص١٠٤ ـ ١٠٦.

فإن قلتم: إن الله تعالى قد رأى أن في تكليفهم بالإيمان عن طريق النظر والاستدلال مصلحة لهم، وتكريماً لعقولهم.

قلنا: وما المانع من أن يبعث إليهم رسولاً منهم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢][1] سيما وأن في ذلك ـ بدون شك ـ مصلحة محققة لهم، ودعماً لمعارفهم ومداركهم العقلية.

٥ ـ **قالوا**: إن كان الغرض من إرسال رسول هو استحقاق الثواب بالإيمان والطاعة، واستحقاق العقاب بالكفر والمعصية.

فبإمكاننا أن ننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره لنعمائه علينا.

وإذا عرفناه وشكرناه كنا أهلاً لثوابه ونعمه، وإذا أنكرناه وكفرنا بنعمائه كنا جديرين بعقابه. وعليه فلا موجب لبعثة الأنبياء.

وأجيب عنه: بأن العقول ـ مهما بلغت من السمو والرفعة والكمال ـ لا يمكنها الاهتداء إلى حقيقة الإيمان وشرائطه، والمعارف ووجوه الطاعات، وما هو اللائق في مقام شكره من دون بيان من الله تعالى على لسان رسله.

وأدل دليل على هذا (ما نراه قبل الرسالات الإلهية من الضلال الذي شمل العالم في ذلك الزمان القديم، بل ما نراه بعد أن خفت صوت الرسل، وضاعت معالم الرسالات الماضية إلى قبيل رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، إذ كان الناس ـ كما نعرف جميعاً ـ يعبدون ما شاؤوا من حجر أو شجر، وما ينحتون من تماثيل وأصنام، ويؤلهون بعضاً منهم، ويستذل بعضهم بعضاً آخر.

بل إن المصريين القدامى مع عبقريتهم العلمية، كان منهم مَن ألّهوا الفراعنة وعبدوا العجل.

وكذلك كان اليونان الأقدمون، مع عبقريتهم أيضاً في الفلسفة والعلم، وثنيين ومثلهم الرومان القدامى، مع حظهم الموفور من الفلسفة والأخلاق والقانون. فكيف غير هذه الأمم الراسخة الأقدام في التفكير، تلك الأمم التي حرمت الاستعداد العقلي والفكري)[2].

٦ ـ **قالوا**: إن مما يبطل الرسالة هو أنا وجدنا المدّعين لها يستدلون على صدقهم بمستحيلات عقلية. مثل: فلق البحر، وخلق ناقة من صخرة، وقلب العصا

---

(١) انظر: التمهيد للباقلاني ص١٠٦ والفصل في الملَل والنِّحَل لابن حَزْم ج١ ص٦٩، ٧٠.

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد يوسف موسى ص٢٢٣.

حية، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والمشي على الماء، وإنطاق الذئب والحصا.. ونحو ذلك.. ولما كان مثل ذلك محالاً ممتنعاً في العقل بطل ما يدّعونه.

وأجيب عنه: بأن امتناع هذه الأمور ـ في نظركم ـ لا يخلو:

إما أن يكون في قدرة الصانع ﷻ، أو في العادة.

فإن قالوا: إنه ممتنع في قدرة الصانع. فقد ألحدوا وتركوا دينهم، لأن المفروض أنهم يؤمنون بإله، ومن صفات هذا الإله القدرة ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤].

وإن قالوا: بل ذلك ممتنع في العادة.

قيل لهم: وما المانع من أن ينقض الله تعالى العادات، ويظهر المعجزات على أيدي رسله كبرهان ساطع ودليل قاطع على صدقهم وصحة دعواهم.

هذا، وقد برهن الإمام محمد عبده[1] على أن حدوث مثل هذه الأفعال ـ وهو ما يسمى بـ(المعجزة) ـ ليس من نوع الممتنع عقلاً، وفي ذلك يقول: (المعجزة ليس من نوع المستحيل عقلاً). فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف.

قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال.

فإن قيل: إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعي. عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد مَن اختصه الله بفضل من عنده، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة، وتابعاً لأي سبب إذا سبق في علمه أن يحدثه كذلك.

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة مَن ظهرت على يده، لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلّغ

---

(١) هو محمد بن عبده بن حسن خير الله ولد ١٢٦٥هـ. حفظ القرآن الكريم ودرس التجويد في الجامع الأحمدي بطنطا ثم انتقل إلى الأزهر سنة ١٢٨٢هـ. اتصل بجمال الدين الأفغاني ١٢٨٧هـ فتأثر به، سافر إلى سوريا وأوربا وأصدر مع أستاذه الأفغاني جريدة «العُروة الوثقى» سنة ١٣٠١، اشتغل بالتدريس والقضاء والإفتاء ودعا إلى الإصلاح. توفي سنة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م.

عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى.

ومن المحال على الله أن يؤيد الكذب، فإن تأييد الكذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليها البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمَن ظهرت على يده. وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة[1].

٧ ـ **قالوا**: إن ما أتى به الأنبياء مثل أعمال الصلاة من القيام والقعود، والركوع والسجود. وأعمال الحج من السعي بين الصفا والمروة، والطواف بالبيت وتقبيل الحجر، ورمي الجِمَار، وأعمال الصيام من الجوع والعطش، كلها مستقبحة عند العقول، وحينئذ لا تكون من أوامر الحكيم تعالى، لأنه لا يأمر بما هو مستقبَح عند العقول، فوجب أن ترد عليهم ولا تقبل منهم[2].

وأجيب عنه: بأنا لا ننكر أن من هذه الأعمال ما هو غير معقول المعنى أي لا تظهر وجه الفائدة فيه نفسه، إلا أن امتثال أوامر الله تعالى حسن في ذاته، وإن لم نلحظ منفعة خاصة به.

ثم ـ لا شك ـ أن في هذه الأعمال وما شابهها حكمة لا يدركها العقل فجاء الرسول منبهاً له ككونها وسيلة لصلاح كثير من الخلق، وداعية لهم إلى توحيد الله والثناء عليه، وغير ذلك مما ينال العباد منه جزيل الثواب والعطاء في الدنيا والآخرة.

٨ ـ **قالوا**: لا سبيل للرسول إلى تلقي الرسالة عن الخالق ـ ﷻ ـ وذلك لأنه تعالى مما لا يدرك بالحواس، ولا يشاهد بالأبصار بحيث يتولى مخاطبة الرسول بنفسه من حيث يراه ويعلمه، وإنّما يدعي الرسول العلم بالرسالة من جهة صوت يسمعه، أو كتاب يسقط عليه، أو سماع شخص يدّعي أنه من ملائكة ربه. ومَن يدري؟ فلعل صاحب ذلك الصوت ومكلمه بعض الملائكة، أو الجن، أو مستتر عنه من الإنس...

فلا سبيل إلى العلم بأن متولي مخاطبته هو الله، وكذلك لا سبيل له إلى العلم بأن الذي أدى إليه الرسالة عن ربه ملك مقرّب، إذ لعل الذي خاطبه بعض السحرة أو المشعوذين... ثم إن تعويله على كتاب يظن أنه من عند ربه من أبعد الأمور لاحتمال أن يكون ذلك من عمل البشر ونظمهم وقد حملته الريح إليه، وأسقطته عليه.

---

(١) رسالة التوحيد ط١٤ ص٨٠.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة لعبدالجبار بن أحمد ص٥٦٣.

وحيث ثبت لنا فساد الطريق إلى تلقي الرسالة عن الله ﷻ ثبت لنا فساد القول بالنبوة والرسالة الإلهية مطلقاً.

وأجيب عنه: بأن هناك عدة سبل يعلم المخاطب بواسطتها أن متولي خطابه هو الله ﷻ.

منها: أن الله تعالى يضطر المخاطب إلى العلم بذاته، ووجوده، ثم يضطره إلى العلم بأنه هو المخاطب له وأن ما سمعه هو كلامه.

ومنها: أن الله تعالى يضمن خطابه الإخبار عن الغيوب وما أسرّته النفوس - ولا سيما نفس المخاطب وما اعتقده في نفسه ولم يطلع عليه أحد من الخلق - فيعلم عندئذ أن المتولي لخطابه هو علاّم الغيوب، لعلمه سلفاً بأن الإخبار عن ذلك وإصابة الواقع في جميعه متعذر على المخلوقين، وأن المنفرد بهذا هو الله رب العالمين.

ومنها: أن الله تعالى قد يعلم مخاطبه (الرسول) بأنه هو الله، وذلك بأن يقول له: (إنني أنا الله) وآية ذلك (أنني أقلب الجماد حيواناً، وأفلق البحر، وأخرج يدك بيضاء، وأحيي الموتى...) فيعلم الرسول أن المتولي لخطابه هو محدث الآيات، ومبدع المعجزات، لعلمه سلفاً بأن الخلق لا قدرة لهم على ذلك.

ومنها: أن الرسول قد يعلم أن الذي أنزل عليه بالرسالة ملك من عند ربه، وليس بساحر ولا شيطان، وذلك بأن يكون الخطاب الذي أداه إليه متضمناً للإخبار عن الغيوب أو غير ذلك.

وأما الكتاب الساقط على الرسول فلا بد - لكي يقبل - من أن تكون معه آية تظهر على يد ملك يؤديه أو غير ذلك[1].

وحيث ثبت وجود السبيل إلى تلقي الرسالة عن الخالق تعالى ثبتت النبوة والرسالة الإلهية.

٩ - وكما قيل قديماً أن الإنسان يمكنه أن يكتفي بعقله في تنظيم شؤونه الحياتية، وتلبية متطلباته الضرورية، فقد قيل حديثاً: إن الإنسان يمكنه الاكتفاء بالعلم في تنظيم حياته، وتأهيله بمؤهلات السعادة والسلام.

وأجيب عنه: بأنا لا ننكر قيمة العلم وأهميته في حياة الناس، فهو رائد الحضارة وباعث النهضة..، قدّم ويقدّم الكثير جداً من الخدمات الهامة للبشرية.

ولكننا نقول: إن العلم وحده لا يكفي في إسعاد البشرية، وتنظيم كافة شؤونها

---

(١) سيأتي لهذا مزيد بيان عند كلامنا على الوحي وإمكان حدوثه.

ومتطلباتها، فبالرغم من ازدهاره، واتساع أفقه، وعظمة معطياته، فهو ما يزال في المهد صبياً ينقصه الكثير والكثير جداً ليبلغ دور النضج والكمال حتى يقال: إنه يستطيع وضع نظام شامل وقانون كامل للحياة الإنسانية. فهو ما زال ـ باعتراف أقطاب العلم وقادة الفكر ـ عاجزاً عن استكناه الكثير من أسرار الكون وألغاز الحياة..، ثم إن أغلب آرائه ظنية تقريبية.. فما كان ثابتاً بالأمس، صار اليوم مشكوكاً فيه أو بيّن الخطأ والاشتباه.

قال الدكتور بول كلارنس أبرسولا[1]:

لقد كنت عند بدء دراستي للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنساني، وبقوة الأساليب العلمية إلى درجة جعلتني أثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أية مشكلة في هذا الكون، بل على معرفة منشأ الحياة والعقل وإدراك معنى كل شيء. وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء من الذرة إلى الأجرام السماوية، ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان، تبيّن لي أن هناك كثيراً من الأشياء التي لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً أو تكشف عن أسرارها النقاب.

وقال الأستاذ وليم جيمس[2]:

إن علمنا ليس إلا نقطة، ولكن جهلنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو: أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر، لم ندرك خواصه المكونة له.

وقال العلامة أنشتاين:

.. العلم يخبرنا بما هو كائن. ولكن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون.

ثم إن التقدم العلمي لا يحقق للبشرية أمنها وسعادتها ما لم يصطحبه تقدم خلقي، وسمو نفسي، وتهذيب للغرائز، وكبح للشهوات، وحب للإنسانية وشعور بالواجب تجاهها، والتضحية من أجل خيرها وسعادتها.

---

(١) أستاذ الطبيعة الحيوية، مدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل (أوك ريدج)، عضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية.

انظر: جون كلوفرمونسما/ الله يتجلى في عصر العلم ص٣٦.

(٢) أستاذ في جامعة هارفارد، في كتاب إرادة الاعتقاد، عن السيد مهدي الصدر أصول العقيدة في النبوة ص٧.

وواضح أن تمتع الأفراد بهذه الصفات، وشيوعها في المجتمعات البشرية ليس من مهام العلم ومستلزماته، بل هو ـ على التحقيق ـ من نتائج الوحي والإيمان بالله تعالى وأثرهما.

قال الأستاذ كريسي موريسون[1]:

إن تقدم الإنسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب إنما هو أثر من آثار الإيمان بالله والاعتقاد بالخلود. وإن غزارة التدين لتكشف عن روح الإنسان ونرفعه خطوة، حتى يشعر بالاتصال بالله.. إن الوقار، والكرم والنبل، والفضيلة، والإلهام، وكل ما يسمى بالصفات الإلهية، لا تنبعث عن الإلحاد أو الإنكار الذي هو مظهر مدهش من مظاهر الفرد، يضع الإنسان في مكان الله.

وبدون الإيمان كانت المدنية تفلس، وكان النظام ينقلب فوضى، وكان كل ضابط وكل كبح يضيع، وكان الشر يسود العالم...

ومن الملاحظ أن التقدم العلمي ـ الذي حقق للبشرية معجزات كثيرة لم تكن تحلم بها من قبل ـ ولم يرافقه ارتقاء خلقي. بل على العكس نلاحظ أن الأمم المتقدمة علمياً وحضارياً تعاني من أزمات خانقة في الدين والأخلاق فنراها سادرة في غَيِّها، غارقة في مستنقع الشهوات والآثام، وقد آثر أفرادها الإباحية والشذوذ الجنسي، وعيش العري، وتنافست حكومات تلك الأمم في ابتكار الأسلحة المبيدة للنوع البشري وتفننت في استعباد الأمم الضعيفة وابتزاز خيراتها، وهذا مما يؤكد ما قلناه من عجز العلم بمفرده عن تحقيق سعادة البشر وتنظيم شؤونها الحياتية، وحاجته الماسة إلى الفكر الروحي الذي هو أثر من آثار الوحي والإيمان.

قال العلامة كامبل فلامريون:

إن من التناقض البيّن أن نرى أن الرقي الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان في الطبيعة.. بينما رفع هذا عقولنا إلى الدرجات العالية، أهبط إنسانيتنا إلى أخس الدركات، ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم.. تنطفىء حرارة قوتنا، وتنصرم زهرة حياتنا القلبية، بتأثير المطامع المادية والشهوات الجسدية[2].

---

(١) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، عضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة، زميل في المتحف الأمريكي للتأريخ الطبيعي. انظر كتابه القيم: الإنسان لا يقوم وحده والذي ترجم بعنوان (العلم يدعو للإيمان) ص٢٠٥.

(٢) الإسلام في عصر العلم ص٢٨٣ عن السيد مهدي الصدر/ أصول العقيدة في النبوة ص٢٩.

وقال العلامة ماكس نوردو:

الإنسانية دائبة وراء البحث عن العلم والسعادة، ولكنها لم تكن في عهد من عهودها أبعد عن الارتياح إليها والغبطة بها مما هي عليه في العصر الحاضر، نعم إن العلم والمدنية ينتشران في كل مكان، وكل يوم يظهر اكتشاف عجيب يجعل الأرض أكثر ملاءمةً للسكنى، وشدائد الحياة أخف وطأة على النفس، ولكنا نرى الإنسانية رغماً عن توافر شروط السعادة والهناء تزداد كدراً واضطراب بال[1].

وعلى تقدير أن العلم بعد نضوجه وبلوغه مرحلة الكمال يستطيع أن يضمن للبشرية سعادتها وينظم لها شؤونها. ولكن من المحقق أنه لن يهيمن على النفس البشرية هيمنة النبوة والتشريعات الإلهية لذلك يبقى للنبوة سلطانها ودورها الرئيس في تهذيب النفس وكبح جماحها، وتوجيهها نحو الخير والحب والسلام.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، وقال أيضاً: «**خير الناس مَن نفع الناس**»، وقال: «**لن تنالوا البر حتى تحابوا**».

١٠ ـ وكما قيل أن العقل الإنساني والعلم الحديث يغنيان عن هدى النبوة، ويمكنان البشرية من العيش في سعادة وسلام. فقد قيل أن النظم والتشريعات التي يضعها الإنسان من وحي تجربته، وحاجاته المتطورة، تُغني عن هدى النبوة وتسد مسدها، فلا حاجة للبشر إليها.

وأجيب عنه:

١ ـ أن هيمنة القوانين الوضعية على النفس البشرية تكون في الغالب هيمنة ظاهرية فقط، وامتثال الفرد لهذه القوانين يكون تبعاً لذلك امتثالاً شكلياً يتحين الفرصة للتهرب والانفلات، وإذا ما تم للفرد التخفي أو التلاعب، فمن النادر أن يناله القانون، لأن القانون لا يعرف الضمائر والقلوب، وهناك جرائم مقنعة لا تراها أعين القانون، ومرتكبوها لا يجدون حرجاً في التمويه، ولا أسفاً على ارتكاب هذه الجرائم بل إن كثيراً منهم يتباهى بمقدرته ومهارته على التمويه والانفلات من طائلة العقاب أو سلطة القانون.

في حين أن القوانين الدينية تسيطر على نفسية الفرد المتدين وتهيمن على قلبه ومشاعره، وامتثاله لها يكون امتثالاً حقيقياً ظاهراً وباطناً، لاعتقاده أن مشرعها ﴿يَعْلَمُ

---

(١) لماذا أؤمن بالقرآن الكريم وبمحمد ص٣٩٣ لهلال علي هلال.

خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

وأن امتثالها مدعاة إلى رضوانه ونعمائه، وعصيانها باعث على سخطه وعقابه.

ثم إن احتيال الفرد على مخالفة القوانين الدينية يشكل انفصاماً في شخصيته وصراعاً في ذات نفسه لعدم تلاقي عقيدته مع سلوكه، فيحس بالألم ووخز الضمير والندم عند ارتكابه ما يخالف تعاليم دينه حتى وإن تمت هذه المخالفة في غياهب الظلام، أو حيث لم يره أحد ولا يتوقع أن يراه أحد. ولا يقتصر الأمر على الندم على العصيان، أو وخز الضمير ـ فهذا في حد ذاته لا يمكن المبالغة في تقدير قيمته ـ بل النقطة الهامة التي تعنينا هنا هي الصدق الموحي بتطابق الشعور مع نوع السلوك، وإلا أضحى الإنسان منافقاً، وخرج من خير الإيمان الصحيح. والدين لا يحترم المنافق بأي حال، ويضعه في مرتبة أسفل من الكافر العنيد.. ولا عجب أن يضع القرآن الكريم المنافق[1] ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

٢ ـ إن القوانين الوضعية تصطبغ وتتأثر بمزاج واضعيها، وظروفهم الخاصة، ونوازعهم الشخصية أو الطبقية أو الفكرية..، وحسبك أن تستعرض النظم الوضعية السائدة لتلمس ما تتصف به من ألوان الأثرة والصراع والتناقض.

فالنظام الشيوعي يناقض النظام الرأسمالي، ويحاربه، ويحاول مسخه وإسقاطه، وموقف الثاني من الأول كذلك.

والنظام الديمقراطي يخالف ويناهض النظام الدكتاتوري، ونظرة الثاني من الأول كذلك، والغالب المسيطر من واضعي تلك النظم هو الذي يصوغها وفق أهوائه ومصالحه.

لذلك انقسم العالم إلى كتل وأحزاب متناحرة تناحراً بشعاً ينذر البشرية بالدمار والفناء[2].

في حين أن القوانين الدينية والتعاليم النبوية مصدرها هو الله ﷻ خالق الإنسان، القدير العليم، الخبير بواقعه وأسراره النفسية والجسمية، ومنافعه ومضاره، وبواعث سعادته أو شقائه في مختلف نواحيه المادية والروحية، الدنيوية والأخروية، وهو ﷻ لا يحابي ولا يمالي طبقة على طبقة، ولا فئة على أخرى، وإنما هو خالق البشر وإلههم جميعاً، وكلهم سواسية لديه، لا يتمايزون إلا بالعمل الصالح[3].

---

(١) في الدين المقارن ص٧٩، ٨٠ للدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر.

(٢) أصول العقيدة في النبوة ص٣٢، ٣٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٣٢، ٣٣.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: **«الناس سواسية كأسنان المُشْط»**.

هذا وقد تكلم أستاذنا الدكتور دراز تحت عنوان (وظيفة الأديان في المجتمع) عن ضرورة وجود قانون ينظم علاقات الأفراد، ويحدد واجباتهم وحقوقهم، وبيَّن عجز القوانين الوضعية والعلوم وحدها عن تأمين الحياة الفاضلة للمجتمعات البشرية، ثم بيَّن خصائص ومزايا التدين في كفالة احترام القوانين، وتوجيه الفرد نحو خير المجتمع وصلاحه. وإليك نص كلامه[1]:

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة في الجماعة لا قيام لها إلا بـ(التعاون) بين أعضائها، وأن هذا التعاون إنما يتم بـ(قانون) ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وأن هذا القانون لا غنى له عن (سلطان) نازع وازع، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرماته. تلك كلها مبادىء مقررة، والحديث فيها معاد مملول.

وإنما الشأن كل الشأن في هذا السلطان النازع الوازع: ما هو؟ فالذي نريد أن نثبته في هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه. السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا في عنقه...، وإنما هو معنى إنساني روحاني، اسمه (الفكر والعقيدة).

ولقد ضلّ قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها.

هذا الرأي قبل كل شيء نزول بالإنسان عن عرش كرامته ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية. ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر، فإنه لكي يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادىء ذي بدء بأن سعادتهم هي في هذا النوع من الحياة، فالإنسان مقود أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة. فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء، وإن فسدت فسد كل شيء.

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا

---

(١) الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص١٠١، ١٠٢.

سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تُحترم فيها الحقوق، وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

ومن الخطأ البيِّن أن نظن أن في نشر العلوم والثقافة وحدها ضماناً للسلام والرخاء وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي، ذلك أن العلم سلاح ذو حدَّين: يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بد من حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد.

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان.

غير أن الإيمان على ضربين:

إيمان بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية وما إلى ذلك من المعاني المجردة التي تستحسن النفوس العالية من مخالفة دواعيها، ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية.

وإيمان بذات علوية، رقيبة على السرائر، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها، وتلتهب المشاعر بالحياة منها، أو بمحبتها أو بخشيتها.

ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفوس الإنسانية وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف، وأسرعها نفاذاً في قلوب الخاصة والعامة.

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة، وكان لذلك ضرورة جماعية، كما هو فطرة إنسانية.

كانت هذه جل أدلة الفريق الذي أنكر النبوات والرسالات الإلٰهية مع إيمانهم بوجود الله تعالى، واعتقادهم بكل ما يدركه العقل من صفاته الكمالية، ومع التزامهم بكل ما يمليه عليهم العقل البشري من سلوك وفضائل، ومجانبتهم لكل ما يبغضه من شرور ورذائل. وقد أشرت أيضاً إلى بعض الشبهات التي يشارك في إيرادها الماديون كالاستغناء عن هدي النبوة بالعلم والقانون.

وقد اتضح لك أن عقول البشر ليست سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة ما بعد هذه الحياة.

ولا في تحديد ما هو خير وشر في كل نوع من الأعمال في الحياة الدنيا، وأن العقل ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة، كما لا

يستطيع أن يزوده بالمعارف الضرورية عن الحياة الأخرى، على الرغم من إيمانه بوجودها. وأن العلم والقانون اللذين هما أثر من آثار العقل البشري لا يكفلان للبشرية سعادتها ما لم يعضدهما نور الوحي وشرائع السماء. لهذا قلنا: إن الإنسان لا يستطيع أن يكتفي بعقله وضميره في كل شيء مما ينبغي أن يعرفه، وإنه بحاجة إلى معين يستعين به في تحديد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادته في الأرض، ولا بد أن يكون هذا المعين من بني جنسه ـ أي إنساناً مثله ـ حتى يفهم منه، أو عنه ما يقول، وذلك المعين هو الرسول.

وبالجملة فالرسول في أمته مثال يقتدي به الناس في كل ما يقوله ويفعله، ويخلص بهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة، وتتم بذلك رسالة الإصلاح والهداية التي جاء بها.

هذا وقد برهن الإمام محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد[1] على جواز النبوات والرسالات الإلهية والبشرية جميعاً، بل على حصولها فعلاً، وأن ذلك كان لا بد منه لهداية الإنسانية وصلاحها. وإليك نص كلامه:

أليس من حكمة الصانع الحكيم الذي أقام أمر الإنسان وعلّمه البيان، علّمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته؟

يميزهم الله بالفطرة السليمة، ويبلغهم بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، بما لو انكشفت لغيرهم انكشافه لهم لفاضت نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته.

فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في الناس ليس من سكانها.

ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله، وما خفي عن العقول من شؤون حضرته الرفيعة، بما شاء أن يعتقد العباد فيه، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه، معبِّرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم.

وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح

---

(١) الطبعة الرابعة عشرة ص٨٨ ـ ١٠٠.

شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم، في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله، ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة.

ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات، حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الإقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين.

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه، وجاد على كل حي بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته، حقيراً ولا جليلاً من خلقه، لا ريب أن هذا يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط والضلال. فأقام للإنسان من بين أفراده مرشدين هادين، وميّزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركون فيها سواهم وأيد ذلك زيادة في الاقتناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويذل الجامح ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه.

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحبطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له. ويستوي في الركون لما يجيئون به: الملك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري.

يعلمونهم ما شاء الله أن يُصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته، أولئك هم الأنبياء والمرسلون.

فبعثة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ من متممات كون الإنسان، ومن أهم حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص، نعمة أتمَّها الله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

خاتمة:

العقل من أعظم نِعَم الله علينا، وأنفع الأشياء وأجداها لدينا، حبانا الله تعالى به، وخصنا بوظائفه. به نميز الخبيث من الطيب، والخير من الشر، والفضيلة من الرذيلة، في حدود ما منحه الله تعالى من سلطة، وما حباه من خصائص، وما أناط به من وظائف.

وجعله تعالى مناط التكليف، ومدار المثوبة والعقوبة. وفوق ذلك، فقد لطف سبحانه بعباده فأرسل لهم رسلاً من جنسهم ليكون هذا داعياً قوياً لهم لأن يؤمنوا بما

وصلت إليه عقولهم وأيدته رسله إليهم، وليعرفوا الحقائق الأخرى التي يعجز العقل الإنساني وحده عن معرفتها.

فالرسول إنما بُعث داعماً ومتمّماً لرسالة العقل الإنساني، ورحم الله القائل[1]: (إن لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة. فأما الظاهرة فالرسل. وأما الباطنة فالعقول).

فالرسالات إذن فضل ورحمة من الله للإنسانية جمعاء، ولولاها لظل الناس يهيمون في الضلال، إلا مَن عصم الله، وبها تمام الحجة لله على عباده.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) الإمام موسى الكاظم.